ماهي التقية ولمن تجوز

كتبه غريب بتاريخ الأربعاء ١٤ شوال ١٤٤٢

من القواعد الأساسية في التعامل مع نصوص الوحي الجمع بين النصوص التي تتحدث عن ذات الموضوع, وإلا فإن أخذ نص واحد دون بقية النصوص, سوف يقودنا إلى نتيجة خاطئة, مثال ذلك من أخذ قول الحق سبحانه:

< يَسأَلونَكَ عَنِ الخَمرِ وَالمَيسِرِ قُل فيهِما إِثمٌ كَبيرٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ وَإِثمُهُما أَكبَرُ مِن نَفعِهِما وَيَسأَلونَكَ ماذا يُنفِقونَ قُلِ العَفوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرونَ >

[البقرة: ٢١٩]

دون بقية الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الخمر, سوف يصل لنتيجة مفادها أن الخمر حلال, وهذا طبعا باطل.

كذلك من أخذ آية التقية دون بقية الآيات فإنه بلا شك سوف سوف يصل لنتيجة مفادها أن الكفر يجوز تقية, وهذا باطل بلا شك كما سوف نبين من خلال المحاور التالية

- معنى التقية لغة
- معنى آية التقية
- متى تجوز التقية

معنى التقية لغة

التقية من فعل اتقى يتقي تقية وتقاة, وهي تعني دفع ما يُتقى والحذر منه وتجنبه.

فتقوى عذاب الله يعني الحذر من الوقوع فيه, وذلك باجتناب ما يسببه من كفر ومعاصي.

وتقوى فلان, يعني تجنب شره وما يؤديه من أعمال.

معنى آية التقية

يقول ربنا عز وجل:

‹ لا يَتَّخِذِ المُؤمِنونَ الكافِرينَ أَولِياءَ مِن دونِ المُؤمِنينَ وَمَن يَفعَل ذلِكَ فَلَيسَ مِنَ اللَّهِ في شَيءٍ إِلّا أَن تَتَّقوا مِنهُم تُقاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفسَهُ وَإِلَى اللَّهِ المَصيرُ ›

[آل عمران: ٢٨]

يخبر ربنا عز وجل في هذه الآية أن اتخاذ الكفار أولياء كفر مخرج من الملة صاحبه ليس من الله في شيء.

ثم قال ربنا عز وجل

‹ إِلّا أَن تَتَّقوا مِنهُم تُقاةً ›

فاستثنى الله عز وجل بأداة الاستثناء إلا أن نتقي منهم تقاة.

عندما نقتصر على هذا الجزء من الآية دون بقية الآية، وبقية الآيات يمكن أن يقول البعض أنه تجوز ولاية الكفار تقية.

أي أن الكفر يجوز تقية وهذا باطل إذا أخذنا بالاعتبار بقية الآية، حيث قال ربنا عز وجل:

‹ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفسَهُ وَإِلَى اللَّهِ المَصيرُ ›

حيث استئنف ربنا التحذير من موالاة الكفار أشد تحذير مرتين:

الأولى بتوكيد أن الله هو المحذر من موالاة الكفار، وكفى به من توكيد.

الثانية بالتذكير بأن إلى الله المصير مما يدل على أن موالاة الكفار لن تنفع صاحبها وستكون عليه وبالا.

لذلك اعتبار موالاة الكفار جائزة تقية هو أمر متناقض مع هذا التحذير الشديد.

أيضا قوله سبحانه:

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعدِ إيمانِهِ إِلّا مَن أُكرِهَ وَقَلبُهُ مُطمَئِنٌّ بِالإيمانِ وَلٰكِن مَن شَرَحَ بِالكُفرِ صَدرًا فَعَلَيهِم غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُم عَذابٌ عَظيمٌ ﴾

[النحل: ١٠٦]

يؤكد أن الكفر لا يجوز إلا بعد وقوع الإكراه فعلا, فقوله

أُكرِهَ

فعل ماض مبني للمجهول, يدل على حصول الإكراه فعلا على المكره, وهذا يعني أن القول بجواز الكفر بموالاة الكفار تقية قول باطل, لأنه مناقض لهذه الآية الصريحة في عدم جوز الكفر إلا بعد وقوع الإكراه فعلا.

بعد أن عرفنا ما سبق نعود لقوله سبحانه:

﴿ إِلّا أَن تَتَّقوا مِنهُم تُقاةً ﴾

فربنا عز وجل رخص في تقيةٍ ما من الكفار, فما هي؟

هي قطعا ليست الكفر, لأن الكفر لا يجوز إلا بوقوع الإكراه فعلا.

وهي قطعا ليست معصية أمر الله عز وجل, فالمعصية أيضا لا تجوز تقية.

إذاً بقي أمر واحد وهو أن التقية هي عدم إظهار البراءة منهم, فيظل الكافر يعتقد بأن المسلم لا يزال كافرا على دينه السابق, فيتقي بذلك المسلمُ شر الكافر.

فمثلا شخص كان كافرا يعيش مع الكفار, ثم أسلم, إذا أخفى إسلامه عنهم, ولم يعلن البراءة منهم, سيظل الكفار يعتقدون أنه لا يزال فرداً منهم كما كان من قبل, فهو لم يبد لهم إيمانه.

أي أن التقية التي رخص الله فيها هي عدم إعلان البراءة من المشركين, واخفاء الدين, إلى أن يتغير الوضع.

مما يؤكد على هذا فعل الصحابة رضوان الله عليهم بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بداية الدعوة, فقد كانوا يخفون إسلامهم عن أهل مكة المشركين, إلى أن قويت شكوتهم فأظهروا دينهم وبدأت مرحلة جديدة تعرضوا فيها الاصناف التعذيب.

إذاً التقية هي عدم إعلان البراء وحسب, ولا تبيح ارتكاب معصية, فضلا عن ارتكاب الكفر بموالاة الكفار.

متى تجوز التقية

إن المرء حين يسلم نفسه لله عز وجل فإنه يقوى بذلك ويعز, وحُقّ له فهو صار من أولياء اللّٰه عز وجل:

﴿ أَلا إِنَّ أَولِياءَ اللَّهِ لا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنونَ ۝ الَّذينَ آمَنوا وَكانوا يَتَّقونَ ﴾

[يونس: ٦٢-٦٣]

فكيف يهين أو يستكين من اتصل بالله وكان توكله على اللّٰه, ولقد تحدثت عن ذلك الشرط من شروط الإيمان سابقا.

هذا هو الأصل في المؤمن, ونظرا لكون لكل قاعدة استثناء, فإنه في الوحي قرآنا والسنة حالتين يجوز للمسلم فيهما إخفاء دينه عن الكفار وهما:

حالة الاستضعاف الشديد الذي صاحبه لا يقوى على مواجهة الكفار, ولا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا, فقد نص ربنا على أهل هذه الحالة في قوله:

﴿ إِلَّا المُستَضعَفينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلدانِ لا يَستَطيعونَ حيلَةً وَلا يَهتَدونَ سَبيلًا ۝ فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعفُوَ عَنهُم وَكانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفورًا ﴾

[النساء: ٩٨-٩٩]

ومن أمثلتها امرأة فرعون التي لا حول لها للخروج من سلطة فرعون, ولا قوة تواجه فرعون بها, فهي من المؤمنين المعذورين, وقد قال ربنا عز وجل عنها:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذينَ آمَنُوا امرَأَتَ فِرعَونَ إِذ قالَت رَبِّ ابنِ لي عِندَكَ بَيتًا فِي الجَنَّةِ وَنَجِّني مِن فِرعَونَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّني مِنَ القَومِ الظّالِمينَ ﴾

[التحريم: ١١]

يجب التوكيد على أن هذا الصنف من المستضعفين يدعوا اللّٰه ليخرجه من حيث هو, لا يهنأ بعيش مع الظالمين, حيث قال ربنا عز وجل عنهم:

﴿ وَما لَكُم لا تُقاتِلونَ في سَبيلِ اللَّهِ وَالمُستَضعَفينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلدانِ الَّذينَ يَقولونَ رَبَّنا أَخرِجنا مِن هذِهِ القَريَةِ الظّالِمِ أَهلُها وَاجعَل لَنا مِن لَدُنكَ وَلِيًّا وَاجعَل لَنا مِن لَدُنكَ نَصيرًا ﴾

[النساء: ٧٥]

فهم ليسوا مستقرين نفسيا، غير راضين بالذل والعيش مع الظالمين على التقية طوال الوقت، كما يفعل بعض أدعياء التوحيد في زماننا.

النوع الثاني الذي تجوز له التقية هو المسلمين في طور نشأة الجماعة المسلمة، بدليل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صحابته رضوان الله عليهم في بداية العهد المكي حيث كانوا يسرون بإسلامهم.

يعني أنه إذا وجدت جماعة من المسلمين في بقعة من الأرض اليوم يمكن أن يخفي أعضاءها دينهم ويبقى أميرها يعلن الدين ويدعو الناس إليه حتى تقوى جماعتهم فيعلنوا عنها تأسيا بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ما عدا هاتين الحالتين لا أجده في وحي الله عز وجل، وقد يكون موجوداً وأنا أجهله، فأنا لم أحط بوحي علماً ولا أعلم سوى قطرة من محيط.